

في الآداب الأجنبية

بِسْتَالْتزِي بين عقله وقلبه

بقلم محمد مهدي عازم

المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفني بها

هناك في بر^(١) مقبرة يقرأ عليها الانسان العبارة الآتية : « بين طيات هذا الثرى ينام هيرخ بستالتزي ، الذي ولد في زوريخ في الثاني عشر من يناير سنة ١٧٤٦ ، وتوفي في برج في السابع عشر من فبراير سنة ١٨٢٧ ، منقذ فقراء نيهورف ، واعظ الناس في « لِنَارْدُ و جِرْتِرُود » ، أبو اليتامى في ستانز ، مؤسس المدارس الشعبية في برجدورف و ميُونِنْجِن - بُكْسِي ، ومعلم الجنس البشري في فِرْدُون . رجل مسيحي ، وطني ، لغيره كل ما يملك ؛ ولا يملك لنفسه شيئا . على اسمه الرحمة والرضوان . »

وإن كل كلمة من الكلمات السابقة لتحمل في ثناياها كتابا من التاريخ . لا تاريخ بستالتزي العظيم وحده ، بل تاريخ البشرية المعذبة ، تاريخ الانسانية المضحية ، تاريخ الوطنية الصادقة ، تاريخ التقوى الراسخة - في ألمانيا ، ثم في أوروبا ، ثم في العالم .

وأنا لا أنوي أن أخرج هذه المقالة عن صورتها الأدبية إلى بحث علمي واف عن هذا المربي الألماني العظيم ، فقد حاولت ذلك في موضع آخر ، ربما نشرته في عدد تال في باب الترية ، ولكنني سأعرض هنا ناحية أو ناحيتين من حياة بستالتزي .

بستانى بين قلبه وعقد :

ذهب بستانى وهو غلام صغير إلى حانوت تاجر من كبار التجار ليشتري لعبة تدخل على نفسه السرور، فقابل فى ذلك الحانوت بائعة صغيرة هى أناسلتيس^(١) ابنة التاجر التى كانت أكبر من بستانى بسبع سنوات ، ولقد خذله البائعة الصغيرة فى مسعاه ، ونصحت إليه بالبقاء على درهماته بدلا من ذلك الإسراف . ولقد عقدت هذه الحادثة رباط الصداقة بين الشخصين الصغيرين ، وكانت صداقة أثمرت خطبة فزواجا .

وذهب بستانى وهو قى ناشئ إلى ضواحي برن لدراسة الفلاحة ، وكان فى تلك المدة على اتصال بريدى بخطيبته أنا ، غير أن تلك الرسائل التى تبودلت بين هذين القلبين - أستغفر الله ، بين هذين العقلين -- لم تكن من صنف رسائل الحب التى نعرفها بين عشيق وعشيقة ، أو خطيب وخطيبته . وإنى لنأقل هنا ترجمة رسالة من هذه الرسائل التى تصف وصفا دقيقا فيلسوفنا فى حياته الخاصة والعامة . قال الحب الفيلسوف :

« عزيزتى

« إن أهم ما يدولى من أخطائى التى لها علاقة بما يحتمل أن أقوم به من الأعمال فى المستقبل ، هو عدم توفيقى ، وقلة حيطتى ، وفقرى فى حضور الذهن وسرعة البديهة التى أحتاج إليها فى الأحوال التى تطرأ فى عملى .
« أما عن إهمالى الفطيع فى الآداب التقليدية ، وفى كل الأمور التى ليست فى الحقيقة هامة فى ذاتها ، فأنا فى غنى عن الإفاضة ؛ فكل امرئ يستطيع أن يرى ذلك فى لأول نظرة .

« وعلى أن أصارك ، يا حبيبتي ، بهذا الاعتراف أيضا : وهو أنى سأعبد دائما واجباتى إزاء شريكى المحبوبة ثانوية بالقياس إلى واجباتى نحو وطنى المقدس ، وعلى أنى سأكون أرق الأزواج وأشفقهم ، لن تشفع عندى دموع زوجتى إذا

هي أمطرتها بين يدي لتحول بها بيني وبين الشروع في واجباتي التي يقتضيها الوطن مني — مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك .
 « ألا إن زوجتي ستكون مقرا لثقتي ، وشريكة في أقدم سر وأعلى نصيحة ؛
 ولسوف تسود منزل البساطة البريئة .

« وشيئا آخر لا بد أن أزيحه عن صدري : وهو أنه لن تمر حياتي من غير أن تحدث فيها حوادث جسام ، وأمور عظام ، فإن أول ما عقدت عليه عزمي هو أن أفي في سبيل أمتي . ولن يعقد لساني خوف من إنسان ، إذا علمت أن الخير لأمتي في أن ينطق لساني ، فما نفسي إلا ملك لوطني . وسأغامر ما شاءت المغامرة في سبيل العمل على رفاهية أبنائي . يا لهول النتائج التي تترتب على الأعمال التي أشعر بنار الحمية تلهني للقيام بها ! وما أصغرني إزاءها ! وما أقوى شعوري بأن واجبي هو أن أشرح لك احتمال وقوعي في المعاطب من جراء ذلك !

« عزيزتي ، صديقتي المحبوبة . لقد صارحتك الآن بخلائي وآمالي ، فلتتدبري كل شيء ، وإذا كان من شأن الصفات التي ألفت من واجبي أن أصارحك بها أن تنقص من احترامك إياي ، فإنك من غير شك ستقدرين إخلاصي . وإن يقلل من تقديرك إياي أنني لم أستغل جهلك بصفاتي الطموح ، التي ترمي إلى تحقيق أبعد رغبة من رغباتي .

ولقد خفقت لذلك النداء السامي قلب لا يقل عنه سموا ، ولا وطنية ، ولا تضحية . فلقد أجابته ليلاه بقولها : « مثل تلك الأخلاق الرفيعة تصل إلى أعماق قلبي . »
 وهكذا قامت معه بعمله ، واحتملت معه تبعه إقدامه ، من غير أن تتحرك شفتاها بكلمة ضجر أو تبرم ، طوال حياة زوجية دامت ستة وأربعين عاما ، كانت فيها أنا زوجة وفيه لبست التزي ، وأمّا ر. وما ، لالأولاده فقط ، بل لتلاميذه البائسين الذين كان يجمعهم من الأزقة والشوارع ليعلمهم ، ومصرفا ماليا لا يطالب ضمانة لشيء مما تتطلب مشروعات زوجها من نفقات .

العقيدة الراسخة :

لعل أظهر صفة في حياة يستأثرى هي الثبات على المكاره في سبيل العقيدة ، فقد كافح في سبيل تربية الفقراء كفاحا مجيدا ، بذل في سبيله ذات نفسه وذات يده ، ولقد كان الإخفاق يختم كثيرا من أعماله ، ولكنه كان لا يخرج من إخفاق إلا إلى ميدان جديد للجهاد ، حتى كتب الله له النصر والسداد . وما أبلغ ما يقوله مشيت في تلك البطولة النادرة : « إن كان في الدنيا معجزة ، فثمة كانت المعجزة ، مكافأة على عقيدة راسخة ، وقلب جرى : لقد اعتقد فأراد فنجح . »

ولا عجب فقد كان حاله مع تلاميذه كما وصف هو : « كنت أأزيم الأطفال من فلق الصبح إلى غسق الليل ، وما ألوت جهدا في إتمام أجسامهم وعقولهم ، وما ركنت إلى غير نفسي في تثقيف عقولهم ، وتهذيب نفوسهم . لقد كانت يدي في كل عمل إلى أيديهم ، وابتساماتي تصحب دائما ابتساماتهم ، لقد كان طعامنا وشرابنا قسما سويا بيننا ، وكنا نمشي جميعا في الحقول والمزارع لاستنشاق الهواء ، ولم يكن حولي هنالك أسرة ولا خلان ولا خدم ، فاتخذت من الأطفال أسرى وخالني ، لقد كنت أشعر بالصحة والسعادة ما داموا في صحة وسعادة ، وكنت طبيبتهم وممرضهم إذا مرضوا . كانوا إذا ناموا نمت بينهم ، وكنت آخر من ينام ، وأول من يستيقظ »

إن في ذلك لعبرة لأولي الأبواب . هذه هي حياة البطولة ، حياة المجد ، حياة العبقريّة ، حياة العقيدة الراسخة لا الهوى المتقلب . ولقد تعجب أن كوفي على هذا الجهد المضني ، والتضحية المنقطعة النظر بالإخفاق في مشروعه ، وبالجحود من تلاميذه ، وبسكران الجميل من آبائهم وأمهاتهم ، ولكنه كعادته لم ينقض يده من عمل إلا إلى عمل . وإليك ما يقوله عن نفسه في كتاب أرسله إلى صديق له في سنة ١٨٠٠ .

« لقد قطعت ثلاثين عاما أصارع الفاقة المروعة ، وأكاد لا أجد لي في الاتصاف عليها أملا لقد قطعت ثلاثين عاما اضطرت في خلالها إلى التخلي عن كثير من أقل ضرورات الحياة ، ولقد حجبني عن مخالطة رفقاء رثاءة ملابسي ،

وكم ليلة قضيتها من غير عشاء، آكلا في حزن ويأس بكسرة خبز جافة على قارعة الطريق، في وقت كان فيه أشد الناس فاقة يجلسون حول مائدة! لقد احتملت كل ذلك، وما زلت حتى اليوم أحتمله لغير غرض سوى تحقيق مشروعاتي في مساعدة الفقراء..

مب تلاميذه :

ولعل أدق وصف لبستا ليزي هو ما كتبه عنه أحد تلاميذه في معهد فردون، وقد صار تلميذه هذا أستاذا، قال يحدث تلاميذه :

« تصوروا يا بني رجلا دميما، ذا شعر شائك، ووجه قد شوهه الجدرى، وغطى أديمه الكاف، لحيته شعناء، وليس له رباط رقبة، سراويله تزر أزارارها بإحكام، ولذلك تراها قد هبطت إلى جواربه، وجواربه قد تخلت لها عن مكانها نازلة فوق نعليه الكبيرتين الغليظتين - تصوروا هذا الرجل يلهث ويهتز إذ يمشي، تصوروا عينيه يفتحهما تارة فترسلان شعاعا من النور، وآونة يكاد يغمضهما كما لو كان مشتغلا بما يدور في خلده، أما أسارير وجهه فتارة تنطق بحزن عميق، وآونة ينبعث منها الرضا والسعادة؛ وأما حديثه فطورا بطيء، وطورا سريع، وأنا هادىء موسيقى، وأنا آخر صاحب كأنه هزيم الرعد. تصوروا هذه الصورة، فهي صورة هذا الرجل الذي كنا ندعوه (أبانا بستا ليزي) وعلى هذه الصورة التي رسمتها لكم، كنا نحبه، لقد أحببناه جميعا لأنه كان يحبنا جميعا، بل لقد بلغ من حبنا إياه أنه كان إذا مرت بنا ساعة لم نره فيها جزعنا من أجله فاذا ما ظهر بيننا لم نستطع أن نحول أنظارنا عنه.. »

مهرى علم